المبحث الثاني

المكان والمديح

يعد المديح من الأغراض الشعرية التي لها حضور دائم في الشعر العربي ويمكن القول إنه التغني بالفضائل من كرم وعفة وسماحة وقوة وشجاعة إلى غير ذلك من السجايا وقد ((رافق قيثارة الشعر العربي منذ وجودها الأول فكان وترا مرنان الصوت فيها)) (١).

والمديح في الشعر العربي مرده إلى أمرين الأول أن يكون الدافع وراء المديح هو تحقيق منافع مادية ودنيوية أي دافع تكسبي، وهذا النوع من الشعر لا يصدر عن عاطفة صادقة. أما الأمر الآخر أن يكون الدافع وراء المديح هو الإعجاب بالممدوح فيشيد الشاعر بما أثار إعجابه من صفات، ويكون صادرا عن محبة سرت في الدم، وود تغلغل في أعماقه، فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص.

والمديح في الشعر الأندلسي لا يكاد يخرج عن هذين الغرضين لا سيما في هذه الحقبة (٩٢هـ-٤٢٢هـ) ومما ساعد على ازدهار هذا الغرض هو أن أمراء الأندلس قد فتحوا الأبواب على مصراعيها أمام الشعراء فأخذوا ((يقطعون الأندلس طولا وعرضا، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلات ويحضرون مجالس أصحاب الأمر وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين وتقرر لهم الأرزاق وتخلع عليهم وظائف التدريس)) (٢).

ويبدو أن أمراء الأندلس كانوا قد اتخذوا ((من أفواه الشعراء أبواق دعاية)) (٣) فظهرت القصيدة الأندلسية بنكهتها العربية، والسبب في ذلك هو أن الشعر لم يكن

---

(١) فن المديح وتطوره في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٢م، ١٤.

(٢) الشعر الأندلسي، غارسيه غومس، ترجمة: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٦م، ٤٦.

(٣) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ١٦٤.

ليخرج من إطاره العام الذي نهجه الأقدمون.

ويطالعنا في هذه الحقبة جملة من شعراء المديح وعلى رأسهم ابن هانئ وابن دراج وهذا الأخير أكثر من المديح بصورة ملفتة للنظر فجاء أغلب ديوانه في هذا الغرض. وهذا مرجعه إلى البيئة التي عاش بها فقد عاش في كنف الأمراء متنولا العطايا والهدايا. وقد ساعد على جذب الشعراء إلى حواضر الأمراء كونهم – أي الأمراء – في الغالب من الشعراء فهذا الداخل[١] يصفه الحميدي بقوله: ((كان من أهل العلم ... وله أدب وشعر)) [٢] أما عبد الرحمن الناصر فقد كان ((أندى الناس كفا على الشعراء)) [٣].

اتخذ شعراء الأندلس من المكان وسيلة للوصول إلى الممدوح فأصبح أشبه بالينبوع يستمد منه الشعراء مادتهم وظل ((وسيلة الشعراء للتعبير عن قيم الوجود الإنساني والمثل العليا في المجتمع)) [٤] وجسد المكان بدلالاته ورموزه مادة ذات شأن لدى المادحين يجدون فيه ما يطمئن صدر الممدوح وما يطبع عليه من شموخ وكبرياء فوصف أماكن الرحلة وبيان أهوالها ومخاطرها وما قطع من المفاوز والأماكن الخالية القصد منه بلوغ الممدوح والتقرب إليه.

وكان شعراء الأندلس يذكرون من الأماكن ما يتلاءم مع مقام الممدوح، وذلك لأن الشاعر ((عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح وإنما يحاول أن يرسم صورة شخصية تتمثل فيها كل الصفات التي يقدرها المجتمع، شخصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أن الشاعر يحاول طبعا أن يربطها بشخصيته))

---

(١) أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك لقب بالداخل وخلع أبو جعفر المنصور عليه لقب (صقر قريش) كانت ولادته عام ١١٣ هـ وكان راجح الحلم (ت:١٧٢ هـ). ينظر: بغية المتلمس، ٣٢/١.

(٢) جذوة المقتبس، ٣٧/١.

(٣) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م، ٧٩.

(٤) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ٣٢٧.

.[1]

والشاعر عندما يمدح يبدأ بذكر الأماكن الخالية والغريبة وصولا إلى الأماكن الأليفة التي يحلم الشاعر الوصول إليها وهي أماكن الممدوح أو يذكر الأماكن التي لها وقع خاص في نفس الممدوح، لأن ((لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح)) [2] ومن هذا المنطلق زاوج الشعراء بين المكان والمديح.

أما عن المعاني والألفاظ التي طرقها شعراء الأندلس في هذه الحقبة الزمنية فإنها ليست بمعان جديدة وإنما هي معان وألفاظ تكاد تكون مشرقية ولا سيما في بداية الفتح ((ولكن الأندلسيين استطاعوا أن يعرضوا ما قلدوا في ثوب جديد وتأنقوا في رسمه وتلوينه حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديدا وعرضا طريفا، أنهم يأخذونهم بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح حتى تحس شخصيتهم فيه واضحة جلية ولا يسعك إلا أن تعترف لهم بالتجديد والابتكار)) [3].

(١) إشبيلية في القرن الخامس، د. صلاح خالص، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ٨٨-٨٩.
(٢) العمدة، ٢١٧/١.
(٣) دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٢.

ويمكن الولوج في هذا المبحث من خلال شقين.

الأول: المكان والرحلة ودلالته في قصيدة المديح.

الثاني: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالتها في قصيدة المديح.

أولا: المكان والرحلة ودلالته في قصيدة المديح.

إن وصف الرحلة في قصيدة المديح هو تعبير عن انفعال فني مبدع، وانفعال نفسي مفتعل، فيلجأ الشاعر إلى تحديد المكان إذ لا بد أن تتضمن الرحلة الانتقال والحركة وتبدأ من مكان وتنتهي بالمكان المقصود. وتنطلق رؤية الذات للمكان في الرحلة من كونه مكانا للخطر والمصاعب الذي تجتازه الذات بإرادة قوية قاصدة الممدوح.

والرحلة ((تعبير أدبي بوساطة اللغة عن انتقال يقوم به الإنسان ماديا أو ذهنيا عبر إبعاد الزمان والمكان والخيال انتقالا حقيقيا أو متخيلا مع ما يصاحب هذا الانتقال من متغيرات شعورية ووجدانية في ذات الإنسان)) [1].

وما يهمنا في هذا المجال هو وصف الشاعر للمكان أثناء الرحلة ثم الدخول إلى المديح ويصاحب هذه الرحلة دوافع نفسية إنسانية ووجهات نظر فلسفية وجدانية وأول من يطالعنا في هذا الشيء هو عباس بن ناصح [2] (توفي بعد ٢٣٠ هـ) حيث قصد الحكم الربضي واصفا رحلته عندما استغاثت امرأة في وادي الحجاز ولهذا يقول:

تململت في وادي الحجاز مسهدا ... أراعي نجوما ما يردن تغيرا

إليك أبا العاصي نضيت مطيتي ... تسير بهم سارياً ومهجرا

(١) الرحلة في أدب أبي العلاء المعري، ماجد حميد فرج (رسالة ماجستير)، كلية التربية الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م، ٤٤؛ وينظر: الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ٤١-٤٢.

(٢) أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي من أهل الجزيرة الخضراء رحل مع أبيه إلى مصر نشأ بها وتردد إلى الحجاز ثم العراق طالبا العلم ثم رحل بعد ذلك إلى الأندلس وكان عالما وشاعرا لدى الخلفاء. ينظر: تاريخ علماء الأندلس (للفرضي)، ٥٠٤/٢؛ المغرب في حلى الغرب، حققه: شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ٣٢٤/١.

تــدارك نســاء العــالمين بنصــرة فإنــك أهــل أن تغيــث وتنصــرا [1]

فالشاعر قد وصف لنا صورة في غاية الدقة تصور الحالة النفسية التي قضى فيها ليلة ساهرا يرقب النجوم في انتظار الصباح ليجد السير إلى الحكم وقد أتعب مطيته من السير حتى هزلت بسبب رحلته ومسيرته في آخر الليل ووقت الظهيرة، ليصل إلى الممدوح طالبا منه نصرة أهل وادي الحجاز والملاحظ أن هذه الأبيات قد جاءت ((بعاطفة شعورية فاقت بها نفس الشاعر فترجم أفكاره وأحاسيسه إلى أصوات عالية النبرة تنفيسا عن الشعور الجياش في نفسه)) [2].

و هذه حسانة التميمية [3] تصف بمقطوعة شعرية رحلتها و ما آلت إليه من مصاعب ومتاعب قاصدة الأمير عبد الرحمن الأوسط قائلة:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمنعني من ذي الظلامة جابر
فإني وأيتامي بقبضة كفه كذي ريش أضحى في مخالب كاسر
جدير لمثلي أن يقال مروعة لموت أبي العاص الذي كان ناصري
سقاه الحيا لو كان حيا لما اعتدى علي زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذي خطته يمناه جابر لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر [4]

في هذا النص وصف للمكان الصعب ومخاطره، ذلك المكان الخالي القفر الحار

(١) نفح الطيب، ٣٤٣/١.
(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ٦١.
(٣) حسانة بنت أبي الحسين الشاعر من أهل البيرة و هي من أولى الشواعر اللواتي اشتهرن بالأندلس تعلمت ودرست فنشأت نشأة طهر وعفاف توفي والدها ولجأت إلى الأمير الحكم ابن هشام لمساعدتها على صروف الدهر، توفيت في القرن الثالث الهجري. ينظر: نفح الطيب، ١٦٧/٤؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: بالينثيا، أنخل كونثالت، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥م، ٥٧-٥٨.
(٤) نفح الطيب، ١٦٨/٤.

فهو يلج بالحرارة لبعد المكان، إلا أنها في نفسها أمل أن يجبر حالها وما آلت إليه هي وأيتامها أحد ما، وقد روعت لفقدان من كان يرعاها فصارت كطير وقد انقضت عليه الجوارح. وسبب انتخابها لهذا المكان المتصل بالصعوبة، لتعبر عن معاناة شدائد الحياة منتهية بشكوى النفس وحالها. وقد استهلت الشاعرة أبياتها ((بالمعنى التقليدي على عادة الشعراء القدماء حين صورت نفسها بعيدة وقد شدت الرحال في اتجاه الممدوح ولكن على الرغم من ذلك يبقى هذا المعنى جميلا، لأنه يعبر بصدق عن واقع تلك المرأة الجريحة التي كانت تعاني الأمرين)) [١].

وتأتي الرحلة في شعر ابن هانئ على شاكلة رحلته الضعن ولا سيما أن شاعرنا عرف بالتقليد والاتباع والسير على نهج الأقدمين وأظن أني استشهدت بنصوص وفيرة في مبحث المكان والغزل دلت بإنصاف على سير ابن هانئ في نهج الأقدمين في النظم تركيبا ودلالة وألفاظا والآن لنستمع لرحلته، حيث يقول:

أيحسب ساري الليلة البدر واحدا	وفي ركلل الأضعان ثان وثالث
سرين بقضب البان وهي موائد	تثنى وكثب الرمل وهي عثاعث
أريد لهذا الشمل جمعا كعهدنا	وتأبى خطوب للنوى وحوادث
عبثت زمانا بالليالي وصرفها	فها هي بي لو تعلمون عوابث
لئن كان عشق النفس للنفس قاتلا	فإني عن حتفي بكفي باحث
وإن كان عمر المرء مثل سماحه	فإن أمير الزاب للأرض وارث [٢]

هذه الأبيات هي جزء من قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي [٣]. وقد اتخذ

(١) الشعر النسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنية، سعد بو فلاقة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ٤٥.

(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٠٤-٢٠٥، العثاعث: الواحد عثعث: الكثيب السهل.

(٣) جعفر بن علي بن حمدون كان أبوه علي بن حمدون بن سماك بن مسعود الجذامي يعرف بابن الأندلسي وفي سنة ٣٦٥هـ خرج من قرطبة جعفر ويحيى (أخوه) قائدين إلى الغرب من العدوة وبين أيديهما الألوية والطبول مزيلين للوزير يحيى بن هشام. ينظر: البيان المغرب، ٢٤٩/٢؛ تبيين المعاني، المقدمة، ٤٨.

ابن هانئ من وصف هذه الرحلة وما تضمنت سبيلا للوصول إلى الممدوح، حيث شبه الجواري بالبدور وأشرك الشاعر الليل في عمله فوصف هذه الرحلة في تلك الليلة، ونزول حوادث الزمان به بعد أن كان لا يهمه حوادثه فوصفه لهذه المعاناة القصد منه الخروج إلى الممدوح، إذن جمع في هذه الأبيات بين الغزل ووصف الرحلة – ليلا – لبلوغ الممدوح.

ولا يخرج ابن دراج القسطلي عن هذا الأسلوب والنمط الشعري المؤثر في ممدوحه فيقول:

ذللا تعسفن الدجى بأذلة	ولواغبا جبن الفلا بلواغب
وكواكب ناءت بغربتها النوى	فقضت مدامعها بنوء الغارب
من كل مفجوع بترحه راحل	لم يسله طمع بفرحة آيب
كذبته بارقة المنى عن صادق	ومن ظنه وصدقته عن كاذب
ضعن سرين الليل ضربة لازم	وسرى إليها الهم ضربة لازب
جمدت عليهن القلوب فأسبلت	فوق المحاجر كل قلب ذائب
وتخازرت عنها العيون فأبرزت	عن أعين بدمائهن سواكب
وتقطعت أسبابهن لطية	وصلت بهن سباسبا بسباسب
يطلبن شأو غرائب لي كلما	نأت البلاد حللن غير غرائب
لحقت بأسباب السماء فأعطيت	فيها خلود أهله وكواكب [1]

حرص ابن دراج في الأبيات على الأسلوب الشعري القديم وهو وصف الرحلة ثم التخلص إلى الممدوح فذكر ولوجه في الصحراء المقفرة وسريان الضعن ليلا وقلق الشاعر وخوفه على السائرين في ذلك المكان. وهذا الوصف للمكان وخوفه من مصاعبه يحمل معنى العزم والهمة للاتجاه صوب الممدوح.

(١) ديوان ابن دراج القسطلي، ١٦٧-١٦٨.

ثانيا: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالتهما في قصيدة المديح.

اتصف المكان بعدة صفات ودلالات كثيرة واتزن بأحداث كثيرة لذلك شغل العديد من المفكرين والفلاسفة والأدباء[١] حتى ((أصبح فيما بعد مرآة تعكس الصدى النفسي للشخصية حيث يتماثل – دلالة وتركيبا – مع ما يحتمل في أعماقها))[٢] وارتبط بالعمل الأدبي أشد ارتباطا فهو يفقد خصوصيته – العمل الأدبي - عندما يفقد المكانية وبالتالي يفقد أصالته[٣].

إن الشاعر عندما يريد مدح شخص ما فإنه يلجأ إلى أجمل الأساليب المتمثلة بالإيضاح والمعاني الجزلة والألفاظ النقية والإشادة بالممدوح في أجمل الصفات [٤]، واللجوء إلى ذكر أفضل الأماكن التي تليق بمقام الممدوح. ولا أظن هناك أفضل من المكان الديني والطبيعي على حد سواء في اقترانه بقصائد المديح. فيبدأ الشاعر بالمزج بين تلك الأماكن وشخصية الممدوح كأن تكون تلك الديار متشوقة إليه أو تزهو بزهوه وفقا لوصف الشاعر، لأن ((إثارة الشعور والإحساس مقدمة في الشعر على إثارة الفكرة)) [٥].

أما المكان الطبيعي فيتجسد في مظاهر تكوينه التي ((تتسم بالسعة والامتداد والارتفاع والانبساط والشدة)) [٦].

وأول من يطالعنا من شعراء الأندلس في إضفاء دلالات المكان الطبيعي على الممدوح هو ابن عبد ربه (ت:٣٢٨ هـ) بل وربما جعل من صفات الممدوح تتجاوز صفات ذلك المكان وقد زاوج بين البحر والقمر والممدوح لما لهذين المكانين من

---

(١) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، ١٩٦؛ فن الشعر، أرسطو طاليس، تح: عبد الرحمن بدوي، بيروت، ١٩٧٣م، ٢٠؛ المعجم الفلسفي، جميل حلبيا، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ٤١٢.

(٢) هامشية المكان في رواية غانم الدباغ، د. إبراهيم جنداري، مج آداب الرافدين، ع٢٣، ١٩٩٢م، ٢٠٥.

(٣) ينظر: جماليات المكان، جاسنون باشلار، ٦٠.

(٤) ينظر: العمدة، ١٢٨/٢.

(٥) النقد الأدبي الحديث، محمد غنمي هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣م، ٣٧٦.

(٦) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، ١٥٧.

دلالة بارزة ومعروفة لدى أغلب الشعراء. فالبحر معروف عنه بصفات الجود والاتساع أما القمر فهو الآخر وصف بالجمال والعلو، وعلى الرغم من هذه الصفات الجميلة فإن ابن عبد ربه يرى في ممدوحه أكثر من هذا الشيء فهو القائل:

فكرت فيك أبحر أنت أم قمر ... فقد تحير فكري بين هذين
إن قلت بحرا وجدت البحر منحسرا ... وبحر جودك ممتد العبابين
أو قلت بدرا رأيت البدر منتقصا ... فقلت شتان ما بين البدرين [1]

فهو يصف لنا شدة تحيره في وصف ممدوحه فإن قرنه بالبحر ذلك المكان المتسع وجد البحر قاصرا عن بحر جوده وإن قرنه بالبدر وجد البدر لا يرتقي إلى صفات ممدوحه فالبون بينهما كبير.

وعلى الرغم من هذه المبالغة في وصف الممدوح الذي كان كريما مع الشاعر إلا أننا نلمح فيها أسلوبا رشيقا وموسيقى عذبة رفعت من القيمة الفنية لهذه الأبيات[2]. وربما كان وراء هذه المبالغة في إضفاء الصفات على الممدوح ارتباط خيال الشاعر ((ارتباطا كبيرا بالعواطف ولهذا كلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوي يعين على إظهار روعتها ويزيد من درجة تأثيرها)) [3].

وكرر ابن عبد ربه معاني قصيدته الأولى مرة أخرى لوجود الأهمية لممدوحه، ولأنه أغر بشمائله وأخلاقه فراح يخلد هاتيك الصفات والشمائل بما عهد على الشعر من تمتعه بسمات الخلود، وبقائه ينشد على مر الأزمان والأماكن واختلاف الممدوحين والشعراء، يقول ابن عبد ربه:

مكارم يقصر عنها الوصف ... وغرة يحسر عنها الطرف
وشيمة كالصاب أو كالماء ... وهمة ترقى إلى السماء

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٨٣.
(٢) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ١٣٧.
(٣) في النقد الأدبي، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٢م، ١١٨.

وانظـر إلـى الرفيـع مـن بنيانـه ... يريـك بـدعا مـن عظـيم شـأنه
لـو خايـل البحـر نـدى يديـه ... إذا لجـت عفاتـه إليـه
لفـاض أو لكـاد أن يفيضـا ... ولاسـتحى مـن بعـد أن يفيضـا (١)

في هذه الأبيات يمدح الخليفة الناصر ويضفي عليه دلالات المكان المتسع والعالي المتمثل بالماء والسماء فمكارمه يتعذر عنها الوصف وشيمته كالماء أما همته فهي عالية علو السماء أما البحر فلو كايل ندى مد يديه لفاض من جود يديه ونرى من هذه الأبيات تحرر الشاعر من القافية من أجل اتساع المعنى والقصد فلذلك نرى في هذه الأبيات رقة الألفاظ وصفاءها كصفاء الماء.

أما المكان الديني في قصيدة المديح فنلمس أثره واضحا في أشعار ابن هانئ وأكثر ما لجأ إليه هي الأماكن المقدسة والتي ضمنها في أشعاره المدحية وأبرز هذه الأماكن هي مكة وشعابها إضافة إلى أماكن مقدسة أخرى عكس دلالات تلك الأمكنة على الممدوح مضيفا عليه هالة دينية وهو القائل:

هـذا الشـقيع لأمـة يـأتي بهـا ... وجـدوده لجـدودها شـفعاء
هـذا أمـين الله بـين عبـاده ... وبـلاده إن عـدت الأمنـاء
هـذا الـذي عطفـت عليـه مكـة ... وشـعابها والـركن والبطحـاء
هـذا الأغـر الازهـر المتـألق المـ ... ـتدفق المتـبلج الوضـاء
فعليـه مـن سـيما النبـي دلالـة ... وعليـه مـن نـور الإلـه بهـاء
ورث المقـيم بيثـرب فـالمنبر الأ ... علـى لـه والترعـة العليـاء (٢)

هذه الأبيات هي جزء من قصيدة مدح بها المعز لدين الله فذكر عددا من الأماكن الدينية والمتمثلة بـ(مكة، الركن، البطحاء، يثرب، الروضة العلياء)، وكلها

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٨٣.
(٢) ديوان ابن هانئ، ١٥-١٦.

أماكن لها خصوصية دينية أضفت على الممدوح صبغة دينية وبخاصة أن القصيدة قيلت في مناسبة دينية وهي حلول شهر رمضان، فقد جعل من هذه الأماكن تزداد إليه شوقا وتحن إليه كيف لا وهو سلالة جده إبراهيم عليه السلام وقد لجأ ابن هانئ في هذه الأبيات إلى استخدام اسم الإشارة (هذا) بشكل ملفت للنظر وربما كان القصد هو إضفاء الهيبة على ممدوحه وهناك من ذهب إلى ((أن اسم الإشارة حاجة معنوية لكنه في الشعر ليس كذلك، لذلك هو حاجة لفظية قبل كل شيء)) (١).

ونلمح في هذه الأبيات تأثرا واضحا بالشاعر المشرقي الفرزدق، وذلك في قصيدته التي مدح بها الإمام علي زين العابدين ﷺ والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم (٢)

حيث نلاحظ أن ابن هانئ أكثر من اسم الإشارة هذا كما أن هناك بعض الألفاظ والمعاني التي تشارك فيها الشاعران مثل (البطحاء والركن) والتأكيد على ارتقاء نسب الممدوحين إلى شجرة الأنبياء وأن نور بيت النبوة قد أضاء عليهما (٣).

ويذهب شاعرنا إلى ذات الألفاظ والمعان في أبيات أخرى وفي مدح الأمير عينه يقول:

وكأني بك قد هززت ملبيا وهدجت بين شعاب مكة والصفا
وكأنني بلواء نصرك خافقا قد حام بين المروتين ورفرفا
والحجر مطلعا إليك تشوقا والركن مهتزا إليك تشوفا
وخطبت قبل القوم خطبة فيصل أثني عليك فوعد ربك قد وفى
وخطبت بالزوراء أخرى مثلها ووقفت بين يديك هذا الموقفا (٤)

(١) الإشارة في شعر المتنبي، د. هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٢٠، ١٩٧٦م، ١١٩.
(٢) شرح ديوان الفرزدق، ٣٥٣/٢.
(٣) ينظر: دراسات في النص الشعري عصر صدر الإسلام وبني أمية، د. عبده بدوي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٨٧م، ٢٣٧-٢٤١.
(٤) ديوان ابن هانئ، ٩٢-٩٣.

فوجد ابن هانئ في هذه الأماكن (شعاب مكة، الصفا والمروة، الحجر والركن) ضالته فاتخذها مصدرا بدلالاتها الدينية، لتلائم مقام الممدوح فهي لم تأت اعتباطا في ذهن الشاعر، لأن ((المكان يشير إلى دلالات رمزية لأشياء ومواقف أو حوادث كان لها حضور عند الشاعر)) [١] حيث حمل ابن هانئ تلك الأماكن رسالته، لتبلغ ما استودع قلبه من مشاعر واستطاع من خلالها أن يوظف هذه المفردات وإضفاؤها على الممدوح، بحيث يصبح ذو فرادة وسمو وبهجة وكرم وبطولة وغيرها من الصفات التي لا ينافسه غيره عليها.

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى يمدح فيها القائد جوهر قائلا فيها:

فقد ضرعت منه الرواسي لما رأت ... فكيف قلوب الإنس والإنس أضرع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر ... تخب المطايا فيه عشرا وتوضع
تسير الجبال الجامدات بسيره ... وتسجد من أدنى الحفيف وتركع
إذا حل في أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض توت وهي بلقع [٢]

فهو يجعل من تلك الجبال ذليلة أمام هذا القائد بل وتسير بسيره، وتسجد وتركع بمجرد سماعها صوته، فهو ينشر الخير والعمران في كل مكان يمر به، والأرض التي يغادرها تصبح صحراء خالية من الحياة.

وقال أيضا:

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى ... وأهل الندى قلبي إليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابة ... على الزاب لا يسدد إليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده ... بقيت لجمع المجد وهي فريق

(١) جماليات المكان في شعر عرار، ٢١٩.
(٢) ديوان ابن هانئ، ٣٥٢-٣٥٣، الحفيف: الصوت، البلقع: الخالي.

فمـا أنـس لا أنـس الأميـر إذا بـدا يـروع بحـرى ملكـه ويـروق [١]

فهنا يتشوق إلى كل الأمكنة التي ضمت ممدوحه، بدأ بالواد المقدس الواقع في الشام والقصر العالي البارز القباب، ويتذكر أيام عز الممدوح عندما يظهر له ويجري في ملكه وقد أشار إلى القباب وهذا تأثر مشرقي فهي رمز مستوحى من التراث و هي عند العرب طراز من الخيام تضرب للسادات والأشراف والملوك [٢].

وكثيرا ما استخدمها الشعراء رمزا للكرم والسيادة المطلقة [٣].

وخلاصة القول في مديح ابن هانئ أنه ((لم يكن يمتدح أحدا إلا لمحبة سرت في دمه وود تغلغل في أعماقه فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص)) [٤].

أما ابن شخيص[٥] (توفي بعد ٤٠٠هـ) فقد نظم أبياتا في مدح الخليفة الحكم ابن عبد الرحمن الناصر [٦] (ت:٣٦٦ هـ) بالغ فيها أي مبالغة عندما جعل جنان الخلد (ذلك المكان المقدس) مجنونة من طول انتظارها الممدوح بقول:

أظـن جنـان الخلـد جنـت صـبابة إليـه فـدارت حـين طـال انتظارهـا
إذا ابتهل الحجاج بالشعب من منـى وقد حان عن رمي الجمار انحدارها
حكـى هـزج الاطيـار لـيلا عجيجهـا ومسـتتر النـوار صـبحا جمارهـا [٧]

(١) تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، ٨١٦.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ٦/٥-٧.
(٣) ينظر: المفضليات للضبي، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٤م، ٣٦-٥٦.
(٤) ابن هانئ الأندلسي، عارف تامر، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط٢، (د.ت)، ٣٣.
(٥) محمد بن مطرف بن سخيص يكنى أبا عبد الله من أهل الأدب المعروفين و من أعيان الشعراء المتقدمين مذصرفا في القول سالكا في أساليب الجد والهزل و كان من أهل قرطبة اتصل بالمنصور بن عامر توفي بعد (٤٠٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١٤٩/١؛ بغية المتلمس، ١٦٨/١؛ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ٩٢٩/٤.
(٦) الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل، كنيته أبو المطرف، بويع للخلافة في (٣٥٠هـ)، واستمر إلى أن توفي عام (٣٦٦هـ)، لقب بالمستنصر بالله. ينظر: البيان المغرب، ٢٢٢/٢.
(٧) شعر ابن شخيص الأندلسي، جمع وتقديم: أحمد عبد القادر صلاحية، دار ابن القيم للنشر، ١٩٩٢م، ١٢.

وبعيدا عن المكان الديني كان للمكان الطبيعي دور فاعل فهذا وليد بن مسلم المرادي [١] يجعل من كرم الممدوح أسمى وأصفى من ماء النهر حيث قال:

أما ترى النهر يا منصور كيف طفا ... وعم ما جاور العبرين بالضرر
وأعجب لجودك لم يفن الورى غرقا ... فيه وقد عم أهل البدو والحضر
ما ذاك إلا لأن الجود عنصره ... صاف مميز وهذا بين الكدر
وإن عهدي به والشمل تعبره ... وإذا انقشع عنه وابل المطر
وكم أرى منه من بعد عزته ... سيعود كالكلب من الود إلى حجر [٢]

فرأى هذا الشاعر طغيان ماء النهر، وما تسبب فيه من ضرر مناسبة للتعجب من جود الممدوح الذي عم أهل الحضر والبادية، ومرد هذا أن منبع الممدوح هو الجود والكرم إلا أن جود الممدوح يختلف عن جود النهر فهذا عذب رائق وجود النهر عكر.

والملاحظ أن الشاعر الأندلسي كان ينطلق من هذه الدلالات المرتبطة بالمكان ويلجأ إليها سواء أكان مقدسا أم طبيعيا ويجعل منها معادلا كفوء لكرم الممدوح ((فهي أرض كريمة جمعت من المحاسن ما هز المشاعر وشحذ القرائح وساعد على الإبداع فرسموا بها أروع الصور واستلهموا من حسنها وبهائها أعذب الألحان))[٣] ولابن شهيد قصيدة جميلة في مدح عبد العزيز المؤتمن استهلها بوصف جميل للرياض وصاغ منها دررا تليق بمقام الممدوح قائلا:

أما الرياح بجو عاصم ... فحلبن أخلاف الغمائم
سهر الحيا برياضها ... فأسالها والنور نائم

(١) وليد بن مسلم المرادي، يكنى بأبي العباس ومن شعراء الدولة العامرية. ينظر: بغية المتلمس، ٦٤٨/٢.
(٢) بغية المتلمس، ٦٤٨/٢.
(٣) في الشعر الأندلسي، د. عدنان صالح مصطفى، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٧م، ١٥.

حتـــــى اغتـــــدت زهراتهـــــا كالغيـــــد بـــــاللجح العـــــوائم
مـــــن ثيبـــــات لـــــم تبـــــل كشـــــف الخـــــدود ولا المعاصـــــم
وصـــــغار أبكـــــار شـــــكت خجـــــلا فعـــــاذت بالكمـــــائم
ورد كمـــــا خجلـــــت خـــــدو د العـــــين مـــــن لحظـــــات هـــــائم
وشـــــقيق نعمـــــان شـــــكت صـــــفحاته مـــــن لطـــــم لاطـــــم
وغضـــــون أشـــــجار حكـــــت رقـــــص المـــــآثم للمـــــآثم
مـــــن باســـــم بـــــاك إليـــــ ـــــك نـــــد وبـــــاك وهـــــو باســـــم [1]

إنها أبيات تدفقت من قريحة الشاعر فأغمرتنا بتلك الألفاظ والمعاني الجميلة، فقد وجد ضالته في ذلك المكان – الرياض – وجعل منه وعاء رحبا محببا إلى نفس ممدوحه حتى الرياح في تلك الرياض جالبة للخير، فيشبه زهورها بالنساء ذوات الأعين النجل التي تحمر خجلا من نظرات المراقبين، ويشبهها أيضا بالخدود المحمرة من اللطم وقد تضمنت هذه القصيدة ((أكثر الخصائص التي اتصف بها شعر الطبيعة في الأندلس من حيث خفة المعاني وحلاوة الألفاظ ورشاقة التعبير وطرافة الصور وجمال القافية وقصر البحر في إطار بهيج من بهاء الطبيعة ومتعة اللهو)) [2].

وخلاصة القول أن شعراء المديح في الأندلس استطاعوا من غير شك أن ينفذوا إلى نفوس ممدوحيهم وأهوائهم ورسموا لنا لوحات جذابة ناطقة بالصدق في المشاعر والعواطف، وظل المكان بقسميه الديني والطبيعي وأماكن الرحلة مصدر وحي وإلهام للشعراء الأندلسيين، وجسدوا من تلك الأماكن ما يناسب مقام الممدوح.

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٥٥.
(٢) ملامح الشعر الأندلسي، د. عمر الدقاق، منشورات دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥، ٢١٩.